تاريخ وطن في سيرة رجل

رحيل الدكتور محمد فاضل الجمالي

(كتب غسان العطية النعي التالي الذي نشرته جريدة الحياة بعددها الصادر في لندن بتاريخ 26 آيار 1997)

غيب الموت رئيس الوزراء العراقي السابق الدكتور محمد فاضل الجمالي في المستشفى العسكري في تونس يوم السبت المصادف 24 آيار 1997، وذلك عن 94 سنة.

وسيرة الدكتور محمد فاضل الجمالي تختصر تاريخ العراق الحديث، من ولادته في الكاظمية عام 1903 من اسرة دينية، وتعلمه في مدرسة الامام الخالصي ودار المعلمين في بغداد وبعدها في الجامعة الامريكية في بيروت ،حتى حصوله على الدكتوراه من جامعة كولولمبيا بنيويورك سنة 1932، ليعود مربيا ثم ديبلوماسيا وسياسيا ورئسا للوزراء لينتهي فيما بعد لاجئا في وطنه الثاني تونس.

شهد الجمالي ولادة العراق، وكان احد ثمرات العهد الفيصلي الذي وضع اساس البناء الثقافي والتعليمي الحديث في العراق، فكان الجمالي ضمن اول دفعة ترسلها الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الامريكية في بيروت، ثم في الولايات المتحدة.

وبعد ان تحصن بثقافة اسلامية انفتح على الفكر القومي العربي المتمثل بالثورة العربية ضد الدولة العثمانية الذي تعرف عليه من خلال المعلمين العرب الذين استدعاهم العهد الفيصلي للمساهمة في النهضة التعليمية في العراق، اضافة الى دور الجامعة الامريكية في بيروت كحاضنة للفكر القومي العربي انذاك.

ان حياة الجمالي كالعراق الحديث جملة مفارقات، فتلميذ الامام الخالصي يصبح رائدا للفكر الليبرالي الاصلاحي، وابن الكاظمية يشارك في توقيع ميثاق الامم المتحدة في مؤتمر سان فرانسيسكو سنة 1945، ليصبح الجمالي صوتا عراقيا مدافعا عن الحق العربي بالاستقلال والحرية، وعن الحق الفلسطيني، ومشاركا في الجهود لتحقيق استقلال ليبيا ثم تونس والمغرب والجزائر.

ومن المفارقات ان تكون شفاعة محمد الخامس ملك المغرب لدى عبد الكريم قاسم هي التي انقذت رأسه من حكم الاعدام وخمس وخمسين سنة سجناً اصدرته محكمة "المهداوي" عام 1958.

ومن المفارقات ان تكون مساعيه لوحدة سوريا والعراق هي احدى تهم الادعاء العام "الجمهوري" ضده.

كان الجمالي واضحا في فكره السياسي "انا عراقي، انا عربي، انا مسلم، العبارات التي لخص الدكتور الجمالي بها هويته الفكرية والسياسية التي لايزال صداها في ذاكرتي من اخر حديث لي معه في لندن صيف 1996.

كان الجمالي مدركا ان العراق الحديث، الذي هو ثمرة وحدة ولايات البصرة وبغداد والموصل العثمانية سابقا، بحاجة الى دعم دولي للوقوف على قدميه من ناحية وحماية كيانه من جيران طالما كانت ارض العراق ميدانا لحروبهم وغزواتهم. ويقول بوضوح انه لولا التحالف مع بريطانيا لما تمتع العراق بحالة من الاستقرار دامت حوالي اربعة عقود تم خلالها رسم حدود البلاد مع معظم جيرانه، ما كان له الفضل في تفرغ العراق للبناء حتى اصبح على رأس دول العالم الثالث المرشحة للانتماء للعالم الاول.

وعند اشتداد الحرب الباردة كان خياره واضحا وصريحا بالانحياز للغرب. وفي هذا كان صريحا في اجتماعات باندونغ ومحادثاته مع جمال عبد الناصر. ورغم اختلافه مع عبد ناصر الا انه كان ضد التورط في صراع بين البلدين ووقف علنا في الجمعيةالعامة للامم المتحدة يدين العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، ويبدو ان هذه الوقفة كانت وراء برقية جمال عبد الناصر لبعد الكريم قاسم قائد ثورة تموز 1958 يرجو فيها عدم تنفيذ حكم الاعدام بالجمالي.

ولكن طالما ظلم الجمالي من جيل الاربعينات والخمسينات وكاتب هذه السطور احدهم، عندما اعتبرنا اجتهاده خيانة واختلافه جريمة فكتب الدكتور الجمالي اخيراً في هذا الشأن يقول: " علاقتي بالولايات المتحدة هي علاقة ثقافة وصداقة عمرها 73 سنة . . وعلاقتي بالسياسة الخارجية الامريكية علاقة الصديق مع الصديق، اقترح وانتقد ولا اسكت اذا اعتدى على امتي خاصة والانسانية عامة . . وربما كنت العربي النادر الذي يخاطب الامريكان مخاطبة الند للند وليس مخاطبة الضعيف للقوى. شعاري معهم: صديقك من صدقك. لم اسكت على الظلم الذي الحقوه بالشعب الفلسطيني في انحيازهم المفرط لاسرائيل. كما لم أسكت عن المظالم التي أوقعوها على الشعب العراقي وانا انتقدهم دفاعاً عن حقي وحفظا لسمعتهم وكرامتهم ومصالحهم في الشوط البعيد فالولايات المتحدة دولة عظمى ليس بقوتها العسكرية وثروتها فحسب بل بمبادئها السامية التي ترتفع بالانسانية".

واذا كان الجمالي في خريف عمره يعاني من الخيبة من السياسة الخارجية الامريكية، فان خيبته من الاطروحات والممارسات القومية العربية لم تكن اقل. . فقد كتب في سنوات الغربة أخيرا يقول: "انه مما يؤلم القومي العربي أشد الألم ان يرى انه مضطر الى ان يتوقف ثماني مرات في سفرة بين عمان وبيروت في العهد الوطني بعد ان كان يمر بسهولة في أيام الاحتلال الاجنبي".

ان البعد الاخر لثقافة الجمالي، بعد اسلامية مدارس الخالصي وقومية الجامعة الامريكية في بيروت، هو نزعته التربوية التي تلقنها على يد ابرز التربويين، جون ديوي في جامعة كولومبيا، فمارس التعليم في البداية قبل الانتقال لعالم السياسية الامر الذي ترك بصماته على مواقفه وتصريحاته فطالما اختلط المربي بالسياسي، فكتب يقول تحت عنوان

"دور التربية والتعليم في تجديد بناء الامة" . . . "العروبة اخلاق قبل كل شيء ولكن كيف حال اخلاق العرب اليوم؟ لننظر اليها الا نشاهدضعفا في الامانة وزيادة في الخيانة. . هل لدينا مناعة ضد التجسس وخدمة النفوذ الاجنبي اما ان هناك من يبيع الوطن بدريهمات معدودات؟".

وطالما كرس جهده في تشخيص امراض المجتمع العربي، فكان داعية للتسامح الديني والرافض للطائفية حيث قال: "وليس ادل على ان الطائفية ليست من الدين من قوله تعالى في القران الكريم (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) ومن المؤسف ان بعض البلاد العربية منيت بحياة سياسية مؤسسة على أسس طائفية فيجب ان ينشأ الجيل الجديد تنشئة تقوم على القضاء على هذه الاحوال وان يعرف جيدا بان الفرص المتساوية والاخوة القومية والشعور الانساني العام هي جوهر الدين وليست الطائفية من الدين في شيء".

اما على الصعيد العراقي فقد لخص الجمالي رؤيته في كتاب نشر في بيروت عام 1969 تحت عنوان "رسالة مفتوحة الى الشعب العراقي الكريم" تبقى الى اليوم مرجعا علميا في تشخيص علل العراق وسبل خلاصه انطلاقا من ضرورة الوحدة الوطنية القائمة على الانتماء والولاء للعراق اولا .

سألت الجمالي مرة، لماذا لم تفكر في انشاء حزب سياسي عراقي ابان العهد الملكي، فكان جوابه صريحا الى حد المرارة: لو كان هناك عشرة اشخاص مستعدين للتعاون المتكافىء لشكلت الحزب.

ان فكر الجمالي هو مزيج من محمد عبده في دعوته للتسامح والاصلاح الديني، و قسطنطين زريق في الدعوة للاحياء القومي عبر التربية والتحديث.

لم يزر الجمالي العراق منذ غادره عام 1961 بعد قضاء ثلاث سنوات في السجن ليستقر ضيفا على تونس التي اولته كل الرعاية واصبح احد الاعلام الثقافية هناك ويسمى احد شوارع العاصمة باسمه.

وهكذا وجدالعرفان من هذا البلد الكريم في وقت بخل عليه العراق والعراقيون بما هو حق له.

❋ ❋ ❋